علي باشا مبارك

(١٢٣٩ — ١٣١١ هـ = ١٨٢٣ — ١٨٩٣ م)

« برِ نْبال » الجديدة قرية صغيرة كسائر قرى الفلاحين بمصر تابعة لمركز (دكرنس) من مديرية (الدقهلية) تقع على البحر الصغير ، بها أربع حارات ، ومرافقها الاجتماعية : مسجد للصلاة، وكتّاب لتعليم القرآن ، ودكان لعطار ، ومعملان لتفريخ الدّجاج ، وأربعة أنوال يدوية لنسج الصوف ، ودكانان لصبغ الثياب البيضاء صبغة زرقاء ، وضريحان لوليّين يستشفع بهما الأهالى لقضاء الحوائج ، وأربع مضايف لكل حارة مضيفة ، تقام فيها مآتم الحارة وأفراحها واحتفالاتها فى الأعياد والمواسم ، وباعة صغار لبيع الخضَر وما إليها ، وبعض صنّاع يقومون بصناعة ساذَجة كنجّار للسواقى ونُوَتِيّ للمراكب تجرى فى البحر الصغير ؛ وفى الجهة القبلية منها جَبّانة لدفن الموتى ، وحولها الأراضى الزراعية ليس فيها من الأشجار إلا نخلتان .

يسكن حارة من حاراتها أسرة تتكون من نحو مائتى شخص يعيش أفرادها كسائر الفلاحين ببهائمهم ودواجنهم وأدواتهم الزراعية ، وعلى رأسهم الشيخ مبارك ، وكان يقوم بكل الشؤون الدينية فى القرية ، فهو إمام مسجدها وخطيبه وهو (مأذونها) يعقد عقود زواجها ، ويسجل صِيَغ طلاقها ، ويُستَفتَى فى المسائل الدينية تعرِض لأهلها ، وَرِث ذلك عن أبيه وجده حتى سُميت الأسرة بأسرة (المشايخ) وتزوج الشيخ أكثر من زوجة ، خلّف منهن أولاداً كثيرة ، إحداهن رُزقت سبع بنات وابناً واحداً سماه عليّا ، وكلهم يعيش على الدّخل التافه والرزق القليل .

علي باشا مبارك

obeikan.com

فى هذه البيئة وُلد علىّ مبارك ، ووقعت عينه أول ماوقعت على هذه المشاهد الطبيعية والاجتماعيـة . ولعله يومَ ولد وبُشّر به أبوه وسُلم له فى يده ليبارك عليه وأذّن فى أذنه أمل فيه أن يكون حَلْقة فى سلسلة (المشايخ) يَرِث الإمامة والخطابة والإفتاء لأهل القرية عن أبيه كما وَرِثها أبوه عن جده وكما ورثها جدّه الأدنى عن جده الأعلى . ولو جرت الأمور مجراها المألوف لـكان هذا ، فما ظنُّك بطفل فقير من أسرة فقيرة فى (برنبال) البعيدة عن مراكز المدنية والحضـارة إلا أن يُسعده الحظ فيكون إمام مسجد ؟ ! ولـكن للقدر شئونه ولله تصرفه .

على هذا المنهج أرسله والده إلى كُتّاب (برنبال) وفقيهه إذ ذاك رجل أعمى شديد عنيف ، وافق اسمهُ مسماه ، فـكان يُسمى أبا عُسْر . كان له الفضل فى أن يكرِّه (عليًّا) فى التعلم والحفظ .

وشاء الله أن تُنكَب هذه الأسرة جميعها بما كانت تنكب به أسر كثيرة فى البلاد إذ ذاك ، فكثيراً ما كان يهمل الفلاحون زراعة أرضهم شـعوراً منهم بأن غلّتها ليست لهم ، وإنما هى مطمع الحـكام : يطمع الحاكم الأعلى فى الحاكم الأدنى ، ويطمع الحاكم الأدنى فيمن دونه وهـكذا حتى يصل إلى الفلاح ، فإذا عجزت غلة الأرض عن أداء الضريبة أُخذت الأرض منه وأُعطيت لغيره ، وكان هذا العطاء مصيبة كبرى على من يُعطَى لشعوره بأنه إنما يعطى ليُسخّر ، يسخّر فى الأرض وزراعتها لتكون غلتها لغيره ، ولذلك كانوا يعبرون عن إعطاء هذه الأرض تعبيراً صحيحاً صادقاً ، إذ يقولون : (رُميت عليه الأرض) . وهذا ما أصاب أسرة الشيخ مبارك ، فقد رميت عليها أرض فلما جاء المحصلون يحصلون الضرائب لم تكف الزراعة فباعوا بهائمهم وأثاث منازلهم ، ثم رأوا أن لابد لهم بعد ذلك أن يهجروا البلد . وتنقّل الشيخ مبارك بأسرته فى البلاد إلى أن نزل على عرب فى (الشرقية) يسكنون الخيام ، يسمّون عرب (السماعنة) فأقاموا له خيمة مثل

خيامهم ، ورأوا فيه ما يسد مطالبهم الدينية ، فكان مرجعَهم فى الفُتيا و إمامَهم فى الصلاة كما كان فى بلدته (برنبال) . فلما استقر به الحال فرغ للتفكير فى تعليم على ، فأرسله إلى كتّاب فى قرية قريبة من الخيام ، ولكن لم يكن يتيسر له أن يذهب كلّ يوم إلى الكتاب و يعود فكان يسكن مع سيّدنا و يزور أباه مرة كل يوم جمعة . ولم يكن حال هذا الفقيه خيراً من حال (أبى العُسْر) و إن كان اسمه (أبا الخِضْر) فكان علىّ يجتهد فى إرشائه بما يستطيع أن يحمله إليه كل أسبوع ليخفف عنه . فلما توالى عليه العُنف كره الكتّاب بتاتاً بعد أن كان قد حفظ القرآن .

هنا حدثت الأزمة ، فعلىّ لا يريد الكتّاب بتاتاً وماذا لقى منه إلا الضرب ؟ ثم ماذا يكون مصيره لو نجح فى الكتّاب ؟ أليس إلا أن يكون كأبيه إمام مسجد ومفتى قرية ؟ وهذا مطلَب لا يقنعه ولا يرضيه ، وأبوه مصمم على الكتاب . واصطدمت الإرادتان فغَلَبت إرادة علىّ .

ولكن أفهمه أبوه و إخوته أنه لا بد أن يتعلم شيئاً ما ، وكان إذ ذاك فى البلاد طبقة من الكتاب الصغار يكتبون للناس فى مطالبهم وأغراضهم أو يمسحون[1] الأرض لهم . ففَضّلَ علىّ أن يكون صبيا لأحد هؤلاء ورضى أبوه بهذا الحل ، فهو يلتحق تلميذاً لكاتب من هؤلاء و يتنقل بينهم ، ولم يكن حظه معهم خيراً من حظه فى الكتاب ، فالضرب هو الضرب والبؤس هو البؤس . ومنهم من يأجُره أجراً قليلا ثم يأكل عليه أجْرَه . ومنهم من يسأله : كم الواحد فى الواحد ؟ فيقول : اثنان . فيرميه بأداة أمامه على رأسه فيشُجُّه . فهذه أيضاً حالة لاتنفع . فيهرُبُ من أمه وأبيه لضغطهما عليه فى العمل بما لايرضيه و يهيم على وجهه متنقلا فى البلاد وأبوه يلاحقه ، و يتعرض أثناء ذلك الإصابة بالكوليرا أحياناً وللسجن

(١) يمسحون : يقيسون .

بسبب وشَايةٍ أحياناً . . وأخيراً شاء القدر أن يسعى له السجّان ليكون كاتباً صغيراً عند مأمور كبير . وشَفَع له فى ذلك حسن خُلقه وجَوْدَة خَطّه .. كان هذا الموظف الكبير « عنبر أفندى » مأمور زراعة القطن بأبى كبير . فلما وقع عليه نظر علىّ مبارك وقع فى حيرَةٍ شديدة ، إذْ رآه أسودَ حَبَشياً ، وعهدُه بالحاكم أن يكون أبيض تركيًّا ، فما الذى أهّله لهذا المنصب الكبير ، وكبار الناس يخضعون له ويمتثلون أمره ويجلون قدره ؟ وإذا كان هذا الأسود قد بلغ هذا القدر . . فلم لا أبلغه وأنا على الأقل وَسَط بين الحبشى والتركى ؟ ولكن ما السرّ فى بلوغ هذا الأسود هذا المنصب ؟ لُغز صَعُب عليه حله ، وكلما سأل عنه أحداً أجابه إجابة لا تقنعه ؛ وقد سأل أباه يوماً — بعد أن رضى عنه — عن السبب فى ذلك ، فأجابه بالقضاء والقدر ، وأن الله إذا أراد شيئاً فلا رادّ لمشيئته ، وقد شاء أن يكون هذا العبد الأسود حاكما مطاعاً فكان ؛ ولكن هذا أيضاً لم يُقْنعه .

وأخيراً أخذ يتحرّى السبب من خَدَم المأمور ، فعرف أن هذا العبد كان مملوكا لسيدة من كبرى السيدات وقد أدخلته مدرسة قصر العَيْنى فتعلم فيها الخط والحساب واللغة التركية وغير ذلك ، وأن هذه المدرسة تُخرج الحكام — إذ ذاك وضع يده على سرّ الأمر ؛ فهناك مدرسة لتخريج الحكام وهى لا تتقيد بالأتراك ، فقد كان هذا العبد الأسود تلميذاً فيها ، فإذا استطاع أن يصل إلى الدخول فى هذه المدرسة أصبح حاكما كعنبر أفندى . ولكن كيف السبيل ؟ — أصبحت هذه المسألة شُغْلَه الشاغل ، وهَمَّه بالليل والنهار ، وسؤاله المتكرر ممن يأنس منهم المعرفة — أين مدرسة قصر العينى ؟ وما هو الطريق إليها ؟ وما المسافة بين كل مرحلة وأخرى ؟ وكيف يأخذون التلاميذ لها ؟ وهكذا ، ثم يكتب كلّ هذا فى ورقة معه ، وقد صمم على أن يحتال للدخول فى هذه المدرسة بأية وسيلة .

وكان أهم ما عرفه عن هذه المدرسة أن مفتشاً يمر على مكاتب القرى

من حين إلى حين يختار أنجب التلاميذ وأذكاهم فيلحقهم بمدرسة قصر العينى .

هذا هو علىّ مبارك يترك العمل عند عنبر أفندى ويلتحق بكتاب ينتظر المفتش ويحاول أبوه مراراً أن يصدّه عن ذلك فلا يفلح ، ثم إذا بالمفتش يحضر ويختار على مبارك فيمن يختارهم ، وإذا هو تلميذ بمدرسة قصر العينى يُمَنّى نفسه الأمانىّ فى أنه سيكون حاكما كعنبر افندى ؛ وعمره إذ ذاك نحو اثنتى عشرة سنة كانت حافلة بالمغامرات الغريبة ، والمفاجآت العجيبة ، والصبر على البؤس والفقر والغربة .

دخل علىّ مبارك مدرسة قصر العينى ، ولكنه سرعان ماشعر بخيبة الأمل ، فلم يجد المدرسة هى الجنّة التى وُعِدَ المتقون ، وإنما هى النار التى يشقَى بها المجرمون . وكانت المدارس المدنية إذ ذاك فى أول العهد بها ، لم يستقرّ أمرها ولم تنظم شؤونها ، فلم تعجبه فى علمها ، إذ لم يجد هندسة ولا حِساباً كما قيل له ، وإنما كان أكثر الوقت يُصْرَف فى تعليم المشى العسكرىّ ، ولم يجد أكلاً يُرضيه — وهو الفقير القَنُوع — فكان يفضل عليه الجُبْنَ والزيتون يشتريهما من ماله الخاص ، ولم يجد نظافة يطمئن إليها ، فنومه على حَصِير قذر ، يلتحف ليله بنَسِيجٍ من الصوف الغليظ حتى أصيب بالجَرَب وبكثير من الأمراض . وإذ ذاك تبخّرت كل آماله ، وزاره أبوه فى مرضه ، وحاول أن يسرقه ، وفكر هو أيضاً فى أن يفرّ معه ، وما منعه إلا ما سمعه من أن من فرّ قُبِضَ عليه وعُذِّب هو وأهله عذاباً شديداً ، فسلّم الأمر لله واستمر فى المدرسة . ثم منّ الله عليه فنُقِلَ إلى مدرسة الهندسة بأبى زعبل لتُخلِىَ مدرسةَ قصر العينىّ لتعليم الطبّ .

وكانت المدرسة الجديدة خيراً من القديمة ، ففيها علم كثير يُرضى نَهَمه [1] ،

---

(١) نهمه : شدة رغبته .

ولكنه يقع فى مشكلة عويصة ، فعقله لا يستسيغ الهندسة ولا النحوَ بتاتاً ، ويسمَع للمدرس كأنه يسمع تعاويذ سِحْرِيّة لا يَفْقَه لها معنى ، ثم تبيّن أن المشكلة مشكلة المعلم لا مشكلة التلميذ ، فكانت فى نفسه عُقْدَة منعته من فَهْم الهندسة ، إذ سمعهم يُسَمُّون مثلّثا ا ب ح وآخر ح د ه ، فاختلط عليه الأمر ، ولم يَدْرِ لِمَ سمى هذا المثلث بهذا الاسم دون ذاك ، حتى رُزِق بمعلم حسن التدريس ، جمع التلامذة المتخلفين فى فصل ، وشرح لهم الهندسة من أولها شرحاً جليّا واضحاً ، وأبان أن هذه التسمية للمثلثات وسائر الأشكال ليست إلا مُوَاضَعات [1] للشرح والتفسير ، فالمثلث ا ب ح أو ح د ه أو أى حروف كانت ليست إلا أسماء اصطلاحية يُسمى بها الشكل ؛ فانحلّت عقدة علىّ مبارك ، وتفوّق على سائر التلاميذ فى الهندسة ، وكان أول فرقته دائماً . ولم يُرزق فى النحو ما رُزق فى الهندسة ، فظل مُعَمًّى عليه .

ثم اختاروا من مدرسة أبى زعبل خير التلاميذ وأدخلوهم مدرسة المهندسخانة ببولاق ، فكان علىّ مبارك أحدهم ، درس فيها كل فروع الهندسة وما إليها حتى أتمها .

ولما اعتزم محمد على باشا إرسال بعثة إلى فرنسا اختار المتفوقين من هذه المدرسة فوقع الاختيار عليه فيمن اختير ، فها هوذا فى باريس بعد برنبال والقاهرة ، لا يعرف أىّ كلمة فى اللغة الفرنسية ، والمدرسون فرَنسيون لا يعرفون كلمة عربية ، فضاق بالأمر ، ولم يجد حيلة إلا أن يجمع الكتب الفرنسية الموضوعةَ للأطفال ويستعينَ بمن يعرف الفرنسية من زملائه ، ويسهرَ على حفظها ليلا ، حتى تمكنت منه عادة السهر الطويل والنوم القليل . وهى عادة لازمَتْه طول حياته . وبعد ثلاثة أشهر استطاع أن يتابعَ الدروسَ تُلقى باللغة الفرنسية ،

---

(١) مواضعات : اصطلاحات .

ويفهمها ويتفوق فيها . وتصل سُمْعَتُه الحسنة إلى أُولِي الأمر فى مصر — لقد درس سنتين فى باريس الهندسة المدنية ، ودرس سنتين فى « مِتْز » الهندسة الحربية وتمرَّن فى ذلك نحو سنة أخرى ، فكانت إقامته فى فرنسا نحو خمس سنين رأى فيها المدارس والجامعات ونُظُم التعليم وحالة البلاد الاجتماعية ، وأخذ من كل ذلك على حسبِ استعداده ودقة نظره . ولم ينس أبداً وهو فى باريس ومتز أبويه فى عرب السماعنة أو برنبال ، فقد رُتِّب له مائتان وخمسون قرشاً ليصرف منها على شؤونه الخاصة غير مسكنه ومأكلِه وتعليمه ، فنزل عن نصفِها لأبويه منذ فارق القاهرة إلى أن عاد . . .

لقد سافر إلى فرنسا فى عهد محمد على باشا وعاد فى عهد عباس الأول ، وكان عهد عباس هذا عهدَ انكماش فى التعليم ، إذ لم يكن يَرضى عن الحركة العلمية فى البلاد بل كان همه بناء القصور لا فتح المدارس بل ولا الاحتفاظ بالموجود ، فألغىَ الكثير منها ، وخَفَض ميزانية التعليم حتى بلغت خمسة آلاف جنيه . وكان أَمْيَلَ إلى تعليم أولاد الأتراك دون المصريين ، فعهد إلى علىّ مبارك فى إدارة البقية الباقية القليلة من المدارس .

وكان طريفاً أن يزور يوماً أبويه فى برنبال — بعد أن عاد إليها — وكان قد مضى عليه أربعةَ عشرَ عاماً لم ير أهله ولا بلده ، إذ كانت المدرسة فى مصر ثُكنَة عسكرية قاسية النظام ، من كان فيها لا يزور ولا يزار ، فأمضى سِنِى الدراسة فى مصر كسِنيه فى فرنسا ، لا يرى أهله حتى أتيحت له الفرصة ، فعرَّج على برنبال لابساً بِزَّتَه [1] العسكرية على النَمَط الفرنسى ، متقلداً سيفاً . وكان وهو فى الطريق يسترجع أحداث الماضى : كيف كان فى الكتاب ، وكيف كان يُضْرَب ، وكيف كان يَهْرُب ، وكيف قسا عليه الكتبة الذين التحق بخدمتهم ،

---

(١) بزته : ثيابه .

وماذا تحمل من المشاق حتى وصل إلى مدرسة قصر العينى ، وكيف كانت حياته فى باريس ومتز ؟ ودقّ الباب ليلا فأجابته أمه : من ؟ فقال : علىّ مبارك ، فلم تصدق ونظرتْ إليه من خَرْق الباب ، وسألته أسئلة تتعرّف منها صدقه ، حتى إذا فتحت البابَ ورأته وقعتْ مَغْشِيًّا عليها ، ثم أفاقت وهى تَهذى ، تبكى وتضحك وتُزغرد . ثم يخرج من جيبه عشرة (بنتو) لتُقيمَ الولائم وتدعو معارفَها من أهل البلد ، وكلهم مغتبط بما أنجبت برنبال من حاكم من الحكام .

توالتْ على « علىّ مبارك » أيامُ بؤس وأيام نعيم ، وكانت الحالة فى مصر غيرَ مستقرة ، وكل الموظفين وخاصة كبارهم رهن بإشارة الحاكم ورهن بما يحاك حوله من دسائس ، فيوماً يرضى فيرفع إلى السماء ويوماً يغضب فيُنزل إلى الحضيض ، والبيت الحاكم منشقّ على نفسه ، إذا تقرب أحد إلى بعضه غضب عليه بعضه الآخر ، يرضى محمد على باشا وإبرهيم باشا عن الشيخ رفاعة الطهطاوى فإذا جاء عباس غضب عليه وأخرجه من إدارة مدرسة الألسن وعيّنه ناظراً لمدرسة ابتدائية تُنْشَأ فى الخرطوم ، ويرضى عباس الأول عن علىّ مبارك ويقربه إليه ، ويعهد إليه فى تنفيذ أمور كثيرة ، فإذا جاء سعيد باشا غضب على علىّ مبارك وأعاد الشيخ رفاعة الطهطاوى وقرّبه إليه .

ولما غضب سعيد باشا على « علىّ مبارك » ألحقه بالفرقة الحربية التى سافرت لمساعدة الدولة العثمانية فى حربها مع روسيا ، فأقام ببلاد تركيا (الآستانة والأناضول) نحو سنتين لقى فيهما عناء كبيراً وشقاء جمّا فاحتمله فى صبر وثبات ، ومع هذا فقد استطاع فى هذه المدة أن يتعلم اللغة التركية ويُجيدها . وعاد إلى مصر يُوظف حيناً ويُطرد حيناً ، فإذا طُرِد فكّر فى الأعمال الحرة ، فاشتغل تاجراً أحياناً ، يشترى من « المزاد » بعض السِّلع المدرسية التى تبيعها الحكومة بعد أن قلّت من مدارسها ويبيعُها بربح يكفُل له رزقَه ، ويشتغل أحياناً مهندساً حُرًّا ،

يضع « تصميات » منازل لمن شاء ، وصمّم أحياناً على أن يعود إلى أهله فى برنبال يعمّل عمل الفلاحين و يعيش معيشتهم وعلى الله العِوضُ فيما تعلّم . وفى كل مرة لا يلبث طويلا حتى يُستدعَى لوظيفة ، ولا يلبث فى وظيفة طويلا حتى يُطرد . ولما جاء إسماعيل باشا أعيدت الحياة العلمية وتُوُسّع فيها،واستقر الحال بعلىّ مبارك فى درجة ما ، فكان هذا العهد أبرَكَ عهوده ، وأخصبها وأكثرها إنتاجاً — لقد عمل علىّ مبارك أعمالا كثيرة تتصل بما اختَصّ به من هندسة مدنية وحربية ، فقد عُهِد إليه فى « تصميم » شوارع وفتحها و « تصميم » تُرع وإنشائها ، و بناء جسور واستحكامات ومساجد وغير ذلك من أعمال هندسية عظيمة ، ولكن كل ذلك لم يكن سرّ عظمته وصحيفة خلوده ، إنما كان ذلك فى شىء لم يتعلمه ولم يتلقّه عن أستاذ ، هو إصلاحه للتعليم فى مصر بالوسائل المختلفة ، و بناؤه فى ذلك بناء ضخما يعدّ دِعامة النهضة التعليمية فى مصر — لقد أريد له أن يهندس المبانى والاستحكامات فهندس هو طرق التربية والتعليم ، وَوَضَع تصمياتهما ، ووقف على تنفيذها فى دقة وإحكام ، حتى عُدّ من كبار المصلحين .

لم يتعلم فى مصر ولا فى فرنسا البيداجوجيا ولا السيكولوجيا على معلم مختَصّ و إنما تعلمها من حسن استعداده وصدق نظره ، ومن دروس فى التربية الفاسدة تلقاها فى الكُتّاب حين يُضرب وفى مدرسة قصر العَيْنىّ حين يُعَذّب ، ومدرسة أبى زعبل حين يُلْقَى عليه الدرس فلا يفهم ، هذا إلى طبيعة خيِّرة توحى إليه بالرحمة بالناس والإشفاق عليهم والألم من جهلهم . لقد وصف هو نَفْسَه إذْ عُهِدَ إليه مرة فى إدارة مدرسة فقال : « كنت ألتفت للتلاميذ ، فى مأكلهم ومشربهم وملبسهم وتعليمهم ، وكنت أباشر ذلك بنفسى ، حتى أعلّم التلميذ كيف يلبس وكيف يقرأ وكيف يكتب ، وألاحظ المعلم كيف يُلقى الدرس وكيف يؤدب

التلامذة ولا يمضى يوم إلا وأدخل عند كل فرقة وأتفقد أحوالها ، مع التشديد على الضبّاط والخَدَمة حتى القراشين فى القيام بما عليهم ، فامتنع بذلك عن التلامذة مضارّ عمومية ومفاسد كثيرة ؛ ولم أكتف بذلك ، بل رتبت على نفسى دروسا كنت ألقيها على التلامذة . . . وكان ما يحصل للتلامذة ومعلميهم من المكافآت والثناء والتشويق والترغيب داعياً لهم لزيادة الجدّ والاجتهاد ، وجرت بين المعلمين المودة والألفة ، وتربّت الأطفال على الأخوّة ، وغُرِس فيهم حبّ التقدم وشرف النفس والعفة ؛ واكتفيتُ فى تأديب من فرّط منهم بالنصيحة واللوم ، وانقطع الشتم والسَّفَهُ ، وكاد يمتنع الضرب والسجن ، وبالجملة كانت أغراضى فيهم أبويةً ، أنظر للجميع من معلم ومتعلم نظر الأب لأولاده . وإلى الآن أعتقد أن ذلك واجب على كل راع فى رعيته ، حتى يحصل الغرض من التربية . وقد تحقق لى نتيجة ما صُرف من الهمة فى تربيتهم والشفقة عليهم ، حتى إنه لما تولى سعيد باشا ودُعيت للسفر مع العساكر لمحاربة المسكوف مع الدولة العلية خرج جميع التلامذة كبيرهم وصغيرهم من المدرسة قَهْراً عن ضباطهم لوَدَاعى ، وجعلوا يبكون وينتحبون انتحابَ الولد على والده ، حتى بكت عينى لبكائهم ، ولكن انشرح صدرى لمشاهدة ثمرات غرسى ، وآثار تربيتى ، فحمدت الله » .

* * *

كان التعليم المدنى الذى أنشأه محمد علىّ فى مصر تعليما أساسه الجيش : فالمدارس الحربية لتخريجه ، ومدرسة الطب لتطبيبه ، والهندسة لتصميماته ، والمدارس الصناعية لإمداده ، والبعثات لسدّ حاجاته ؛ فإن جاءت من كل ذلك فائدة لغير الجيش ، فبالتبعَ لا بالقَصْد ، حتى إن المدارس كانت ثُكْنَاتٍ عسكرية فى نظامها وما كلها وملبسها ، ورتبُ المعلمين والنظار والمديرين رتب عسكرية ، فملازم وصاغ وأميرالاى وميرميران إلخ ؛ حتى الطلبة فى البَعْثة فى باريس لهم بيت يقيمون

فيه يُدار إدارة عسكرية ، وكل أنواع التعليم على هذا الوجه فى القاهرة والإسكندرية فقط ، أما المدن الأخرى والأرياف فليس لها حظ من هذا التعليم . وبجانب هذا التعليم تعليم آخر يبتدئ بالكُتَّاب ، وهو منتشر فى القاهرة والمدن والقرى وينتهى بالأزهر ، وهذا التعليم لا تُعنَى به الحكومة ولا تتدخل فيه ولا يُهمها أمره ، وكل ما فعله عباس الأول وسعيد أن ضيّقا التعليم المدنى ، حتى إذا جاء إسماعيل بدأ يتغير هذا النظام ، ويُنظَر إلى التعليم نظرة أخرى غير النظرة الحربية . وكان من أكبر العاملين على هذا علىّ مبارك — فلو قلنا إنه حوّل التعليم من وجهة حربية إلى ثقافة شعبية ، كان ذلك وصفا مجملا صادقاً .

رأى أن عماد التعليم الشعبى الكتاتيب فى المدن والقرى ، وهى فى حالة يُرثَى لها [1] ، فكثير منها إما فى دُكّان أو « حاصل » أو فى حجرة مظلمة بجانب مراحيض المسجد ، والتلامذة يختلط صحيحهم بمريضهم وقد يكون المرض مُعدِياً ، فأقرع وأبرص وأجرب ومحموم ينشرون العَدْوَى فى الأصحّاء . يجلسون على حصير بال ويشربون بكوز واحد من زِير واحد ، ويأكلون فى الظهر من صحن واحد ؛ وفقيه الكتاب كثيراً ما يكون أعمى لا يُحسن أن يَرْعَى التلاميذ ، ولا أن يدبر شؤونهم ؛ وكل كفايته أنه يحفظ القرآن ويحفّظه من غير فهم ، لا علم له بالدنيا ولا بالدين ، ووسائل التأديب عنده ليست إلا السّب والضرب .

بدأ علىّ مبارك — وقد عُهِد إليه فى إدارة التعليم فى عهد الخديو إسماعيل — يُصلح هذه الحال ويُدخلها تحت الإشراف الحكومى ، بعد أن كانت الحكومة لا تُعنى إلا بالمدارس الحربية وما يُعِدّ لها . فقبض بيديه عليها ، وأرسل من يحصى كل كتاتيب القطر ويصف حالة كل كتّاب من صلاحية بنائه وعدم صلاحيته وعدد تلاميذه وحالة فقيهه وتبعيته لأوقاف أو لا ونحو ذلك ؛ وقسمها بحسب

(١) يرثى لها : تستوجب الرحمة والإشفاق .

ذلك إلى ثلاث درجات : جيدة ومتوسطة ورديئة ، ووضع لها « لائحة » تسمى «لائحة رجب» — وهو تاريخ صدورها — تُعدّ بحق خطوة خطيرة فى تاريخ التعليم فى مصر عالج فيها كل المشاكل التى صادفته من مراعاة الأمور الصحية وتدبير المال اللازم ورفع مستوى الفقهاء — وقد سماهم « المؤدبين » — وبرامج التعليم ووسائل تشجيعه وإشراك الأهالى والمديريات فى حمل بعض الأعباء المالية والتعليمية وتحويل بعض الكتاتيب الكبيرة الصالحة إلى مدارس ابتدائية ، ووجه فى تنفيذ ذلك كل قواه ، وكثيراً ما كان يُعهد إليه — إلى إدارة المدارس — فى إدارة الأشغال وإدارة الأوقاف فيكون ناظر هذه جميعها (وزيرها) فيسخر الأشغال لإصلاح مبانى المدارس والكتاتيب ، ويصرف من مال الأوقاف على التعليم ، حتى انتقل التعليم به نُقْلةً جديدة .

نعم ليس كلُّ الفضل فى ذلك له وحدَه ، فقد كانت البلاد تَتُوقُ[1] إلى إصلاح التعليم ، وقد طالب به مجلس الشورى وكان هذا الإصلاح يتفق وما رسم الخديو إسماعيل من رغبة فى تمدين البلاد ، ولكن كان فضل علىّ مبارك أن يأخذ الفكرة الخيالية ، فيحوّلها إلى حقائق واقعية ، ويدرُسها دراسة علمية ، ويضع خططها وتصميمها كما تعود ذلك فى التصميم الهندسى ، ويبرزها إلى الوجود ويرعاها بعنايته .

إلى جانب الكتاتيب وفتحها وتنظيمها والمدارس وإنشائها شَغَلَتْه مسألة المعلمين كيف يصلحهم ؛ فقد كان يقوم بتدريس اللغة العربية فى المدارس رجال من الأزهر ، والتعليم فى الأزهر إذ ذاك على أسلوبه فى القرون الوسطى يُعلِّم الكتب ولا يعلم العلم ، وغاية النابغ منهم أن يحسن فهمَ عبارة الكتاب لا فهمَ موضوع الكتاب ، وهذا يؤدّى إلى أنه لا يحسن تطبيق ما تعلم ؛ فأكثرهم

---

(١) تتوق : تتشوق .

لا يُحسن قراءةَ صفحة ولا أن يكتبَ موضوعاً ، ولا أن يقيمَ وزناً لبيتٍ من شعر ، كما وصفهم بذلك عبد الله باشا فكرى فى مقال كتبه ، فكيف يصلحون بعدُ لتعليم الناشئة ؟

إذ ذاك فكّر علىّ مبارك فى إنشاء مدرسة يؤخذ لها من خِيرة طلبة الأزهر بامتحان ، ويُختار لها خيرة العلماء من الأزهر وغيره ، ويعلم طلبتها العلومَ الدينية واللغوية وشيئاً من علوم الدنيا كالرياضة والجغرافية والتاريخ والطبيعة والكيمياء ، فكان من ذلك كله مدرسة دار العلوم . أما معلمو المواد الأخرى كالهندسة والحساب واللغات فقد رأى أن يأخذهم ممن أتموا دروسهم فى المدارس العالية كالمهندسخانة ومدرسة المحاسبة والإدارة بعد أن يقضوا مدةً مُعيدين لأساتذتهم .

وفكر فى الثقافة العامة بجانب التعليم فى المدارس ، فكان له من ذلك ثلاثة أشياء :

(١) قاعة للمحاضرات يحضرها كل من شاء ، يحاضر فيها كبار الأساتذة من مصريين وأجانب ، فيحاضر مثلا الشيخ حسين المرصفي فى الأدب وإسماعيل بك الفلكى فى الفلك والشيخ عبد الرحمن البحراوى فى الفقه ومسيو بروكش فى التاريخ العام وأحمد ندا فى النبات ، فإذا حاضر محاضر باللغة الأجنبية ألقيت محاضرته بعد ذلك باللغة العربية ، وهذه المحاضرات يومية ما عدا أيام الجمع ، وكل محاضرة ساعة ونصف ساعة ، وبعض الموضوعات محاضرتان كل أسبوع وبعضها محاضرة واحدة .

(٢) إنشاء مجلة سميت « روضة المدارس المصرية » رأس تحريرها الشيخ رفاعة الطهطاوى ، وذكر فى أول عدد منها أن مدير المدارس وهو علىّ باشا مبارك « جعلها ملحوظة بنظر نظارته لا يندرج فيها شىء إلا بإشارته » وطلب من الأساتذة أن يمدُّوها بالمقالات ، وكان يُنشر فيها بعض ما يلقى فى قاعة المحاضرات

وكان فى العدد الأول منها مقال لعلىّ مبارك موضوعه « إنشاء دار الكتب الخديوية » .

(٣) إنشاء دار الكتب ، وقد كانت الكتب قبل ذلك متفرقة فى المساجد أو الأماكن المهجورة عُرضةً للسرقة أو التلف ، فجمعها فى مكان واحد ورتبها وسهّل الاستفادة منها وجعل لها قاعة مطالعة .

فكان من ذلك كله حركة علمية شعبية ساعدت على النهضة المصرية .

وأعانه على نجاحه فى خُطَطه ما كان يَلقى من عطف وتشجيع من الخديو إسماعيل ، فهو يقر مقترحاته ويبذل المال لتنفيذ مشروعاته .

* * *

وناحية أخرى لها قيمتها فى حياة علىّ مبارك باشا ، وهى مجهوده الكبير فى التأليف والتشجيع عليه ، فقد نهضت البلاد فى التعليم كما بيّنا ، فكان لا بد من حركة فى التأليف والترجمة تسايرها ، وقد قام بقسط وافر فى هذا الباب الشيخ رفاعة الطهطاوى ، فقام علىّ مبارك باشا بنصيبه الوافر أيضاً ، فألف فى مِهْنته الخاصة ، وهى الهندسة ، كتباً للطلبة ، وألف كتباً أخرى فى الثقافة العامة أهمها خِطَطُه لمصر المسماة « بالخِطَط التوفيقية » يصف فيها القاهرة وحاراتها وشوارعها ومساجدها ومدارسها كما يصف مدن مصر وقراها مرتبة على حروف الهجاء . وإذا ذكر قريةً ذكر ترجمة من نبغ منها أو كانت له شهرة فى ناحية ما ، وذكر فى ذلك كله أقوال المتقدمين والمتأخرين ، فكان كتاباً جليل النفع عظيم القدر أكمل به خِطَط المقريزى وماحدث للقاهرة والمدن والقرى المصرية من تغيير بعده إلى يوم تأليفه ، ووقع الكتاب فى عشرين جزءاً أو خمسة مجلدات . كما ألف كتاباً سماه « عَلَم الدين» وهو قصة لشيخ تربَّى فى الأزهر وتَتَلمَذَ لَهُ مستشرق إنجليزى تعلم منه اللغة العربية ودعاه الإنجليزى أن يزور معه إنجلترا فلبى الدعوة ، وكانا كلما مرا

obeikandi.com

على شيء من القاهرة إلى الإسكندرية سأل الإنجليزىّ الشيخ عَلم الدين فأجابه ، وبعد الإسكندرية انقلب الشيخ تلميذاً والإنجليزى معلماً ، يسأل الشيخُ عن كل ما يجهل فيجيب الإنجليزى . وملأ الكتاب بمعلومات قيمة عن الشرق والغرب ومظاهر الحضارة الأوربية، وكان غرضه من هذا الكتاب تفتيح أذهان الشرق لما فى الغرب . فالشيخ علم الدين فى أول القصة رجل أزهرى جامد لا يعرف شيئاً من شؤون الدنيا ، فلما ساح فى أوربة اتسع ذهنه ومَرَن عقله وَرَقِيَتْ أحكامه على الأشياء ، ورأيناه يحضر دار التمثيل وينظر إلى المسرح بالمنظار . ومن طرائف علىّ مبارك أنه وهو وزير المعارف الخطير لم يستنكف أن ينظر إلى الأطفال فى بدء تعلمهم للقراءة والكتابة ولم تُعجبه طريقة تعليمهم ، فأخذ نفسه بتأليف كتاب من جزئين ، يعلِّم فى أولهما حروف الهجاء وكيف تتركب ، ويضع ثانيهما للتمرين على المطالعة السهلة فى موضوعات مفيدة ، إلى غير ذلك من الكتب . كما كان يستحثّ العلماء على التأليف فى الموضوعات النافعة على أسلوب جديد يقرب المعلومات إلى الأذهان ، وكان من أكبر من ساعده فى تحقيق أغراضه فى التأليف عبد الله باشا فكرى .

* * *

وكان بيته فى الحلمية القديمة نادياً عجيب الشأن ، يجتمع فيه كلّ ليلة طلبة المدارس وأساتذتها من كل نوع حتى تمتلىء بهم الدار ، ويتنقل هو بينهم يخاطب كل جماعة منهم فى شأن من شؤون العلم يتناسب معهم ، فيخاطب الطلبة فى حالة مدارسهم ومقدار تحصيلهم للدرس ، وما يشكون منه من نظم التدريس وما يقترحون لإصلاحها ، ويخاطب المدرسين فى تدريسهم وانتقاداته عليهم ، ويستحثهم على التأليف فى الموضوعات التى يقترحها وما ينبغى أن تكون عليه الكتب فى أيدى الطلبة ، ويلتمس الفرص ليشرح لهم الأخطاء التى يقع فيها

الطلبة ويقع فيها الأساتذة وتأخُّرَ الشرق وأسبابَ تأخره وتقدُّمَ الغرب وأسباب تقدمه إلى غير ذلك . حدثنى عبد العزيز باشا فهمى ،قال :

« كنت يوماً فى بيت على باشا مبارك ، والناس تموج فى بيته ، والحُجَر مزدحمة بالزوار ، وعلى باشا يتصدر حجرة منها ، فحضر مصطفى باشا رياض وكان ناظر النظار إذ ذاك ، فأخذ يخوض فى الناس حتى وصل إلى على باشا مبارك فقال له : « ما هذا ياباشا ؟ » فقال له : « يا دولة الرئيس إنا فى بلد يهاب الناس فيه أن يخاطبوا معاون إدارة أو مأمور مركز أو أىّ موظف حكومى ، فإذا نحن جرأناهم علينا وخاطبناهم وخاطبونا ، أمكنهم أن يخاطبوا الموظفين فى غير هيبة ، وتعوّدوا أن يطالبوا بحقوقهم ، وقالوا : إنا نجالس الناظر (الوزير) ونخاطبه ، فلم لانخاطب من هو أقل منه منزلة ؟ » .

* * *

لم تكن خُطط على باشا مبارك فى التعليم هى المثل الأعلى ، ولا كانت خالية من العيوب ، ولكنها كانت خطوة مباركة صالحة لأن ترقى مع الزمان ، ويُصلح ما ظهر فيها عند التنفيذ من أخطاء ، كما حدث ذلك فعلا فى وزارة رياض باشا من بعد ، ولكن ساءت الحال فى مصر بتدخل الأجنبي بدعوى حماية الدّين ، كما أسلفنا فى ترجمة جمال الدين الأفغانى . وجاءت الثورة العرابية وأعقبها الاحتلال الإنجليزى فقبض الإنجليز على التعليم ، وصبغوه الصبغة التى يريدونها .

لم يشترك على باشا مبارك فى الثورة العرابية ، إذ كان مزاجه ليس مزاجاً ثوريا بحكم منشئه وتربيته — عكس مزاج الشيخ جمال الدين ، الثورى العنيف — وكان مبدؤه الطاعة التامة لولىّ الأمر ، مهما كان . أطاع عباساً الأول وسعيداً وإسماعيل وتوفيقاً ، وخدمهم فى إخلاص ؛ ولعله — كبعض المصلحين — يرى أن إصلاح التعليم خير أنواع الإصلاح ، بل هو خير من الإصلاح السياسى ، ويرى

أن الإصلاح السياسى ما لم يرتكز على الإصلاح التعليمى فلا بقاء له ولا قيمة — لذلك لا نرى له إصبعاً ما فى الثورة العرابية. ولقد اتهم كثير من عقلاء الأمة بمشايعة عرابي باشا ، كعبد الله باشا فكرى والشيخ محمد عبده، وغضب عليهما الخديو توفيق، ولكن لم يتهم على باشا مبارك فى شىء ما ، ولم يفقد رضا توفيق باشا وعطفه، وإنما فقد رضا عرابي باشا وحزبه ؛ وكل ما أثر عنه فى الثورة العرابية أنه تبرع يوما بشىء من ماله لهذه الحركة ، ولكن لعل ذلك كان تحت تأثير ضغط شديد عليه من الشبان المتحمسين . وزاده إيماناً بحياده أنه لم يكن يؤمن بنجاح الثورة العرابية ، على حسب ما كان يرى من ظروفه المحيطة به التى تمكنه من الاطلاع على شئون مصر والشرق والغرب . وقد روى الشيخ محمد عبده أنه حضر مجلساً فى بيت على باشا مبارك كان فيه سلطان باشا — وقد أخذ سلطان باشا يُشيد بذكر قوة الجيش المصرىّ وما يمكن من زيادة عدده — فرد عليه علىّ باشا مبارك بأن حالة البلاد المالية لا تتحمل هذه الحرب ولا تساعد على النجاح فيها . ثم رأيناه فى أثناء الثورة يذهب إلى بلده ويعمل فى إصلاح أرضه ؛ وعلى كل حال فالإنسان مطالب أن يعمل وَفق مايهديه إليه عقله وما يتناسب ومزاجه . وقد كان مزاج علىّ مبارك مزاجاً هادئاً ناسبه أن يوجّه أكثر قوته لإصلاح التعليم ، ففعل . وربما كان أساس نجاحه شدة غيرته وقوة إخلاصه وعمق رغبته فى خدمة وطنه .

وبعد الاحتلال الإنجليزى لمصر ألفت وزارة مصطفى رياض باشا وعهد فيها إلى علىّ مبارك فى نظارة المعارف ؛ ولكن ما أبعد الفرق بين الحالين ، وما أشد الاختلاف بين العهدين — لقد كان فى العهد الأول قبل الاحتلال حرًّا طليقاً ، يفكر كما يشاء ويفصل مايشاء ويدبر المال لمشروعاته كما يشاء ، لا يقيده فى ذلك كله إلا عرض الأمور على ولىّ الأمر ليقره عليها ويتلقى نصائحه فيها . أما فى هذا العهد فليس حرًّا ولا طليقاً ، لا يفكر إلا إذا سمح له المستشار الإنجليزى بالتفكير

ولا يفعل إلا فى الدائرة المحدودة التى خطها المحتلون ؛ وقد عبر هو عن ضيق صدره فى ذلك بأسلوبه الناعم الهادئ ؛ إذ يقول فى هذه الحقبة : « وأنا الآن قائم بهذا الأمر على حسب المصالح ، بقدر الإمكان ، والله المستعان » .

اصطدم بعد ذلك بالقيود التى قُيدت بها المصالح الحكومية ، وخاصةً القيودَ المالية التى وضعها مستشار المالية ألفرد ملنر (لورد ملنر فيما بعد) فتنحَّى عن منصبه ، وكانت قد كَبِرَتْ سنه ؛ فلزم بيته ، حتى مات عن نحو سبعين عاماً .

ربما كان علىّ باشا مبارك والشيخ رفاعة الطهطاوى وعبد الله باشا فكرى الفُرسان الثلاثة فى ميدان العلم فى مصر فى ذلك العصر ، وأركان النهضة العلمية المصرية ، ولكن كان لكلٍّ طابع ولكل ميزة ؛ فعلىّ باشا مبارك يهتم بالمسائل الكلية فى سياسة التعليم وتنظيمها وتخطيطها وتنفيذها ، وإذا نظر إلى الجزئيات فلتطبيق الكليات عليها ؛ والشيخ رفاعة ينظر إلى المسائل الجزئية ويُعْنَى بإصلاحها وتنفيذها ؛ فإذا عهد إليه فى إدارة مدرسة بَثَّ الروح فيها ، ثم هو يؤلف ويترجم ويبعث تلاميذه على التأليف والترجمة ، وبهذا أمدَّ البلاد هو وتلاميذه بطائفة من الكتب النافعة كانت عماد النهضة ؛ وعبد الله باشا فكرى كاتب شاعر أديب مؤلف له قيمته فى معرفة ما يناسب عصره من التأليف فيؤلف فيه ، كان تلاميذ المدارس يتعلمون الأدب من مقامات الحريرى والنحو من كتاب شرح الشيخ خالد على الأجرومية ؛ فألف كتبه على نمط جديد ؛ وكانت تلاميذ المدارس الابتدائية لا تجد ما تطالعه فألف لها (الفوائد الفكرية) ثم كان أكبر عون لعلىّ باشا مبارك فيما ألف من كتب — فلكلٍّ من الفُرسان الثلاثة مزية ، ولكلٍّ فضل . رحمهم الله جميعاً .